جي دي موبسان

بمناسبة مرور مئة عام على ولادته

الأستاذ إسكندر كرباج

ولد جي دي موبسان في قصر ميرومنسيل في نورمنديا. وهو من جهة أبيه ينتسب إلى أسرة شريفة مفلسة، ومن جهة أمه إلى عيلة وضيعة من الفلاحين. وكان والده رجلا فاسقاً وأمه امرأة فاضلة. وعندما أخذ الابن يلاحظ ما بين أبيه وأمه من التناقض في الأخلاق والنزعات، أدرك وهن اتحادهما الذي هو إحدى ثمراته، وراح يرتاد البحر ويود اقتحام غمراته، لاعتقاده أنه يمثل كل ما في الحياة من خير وشر، وبؤس ونعيم. فكان يقضي معظم أوقاته متجولا في السواحل برفقة كلبين كبيرين، وكان من أحب الأشياء إليه الاشتراك مع قرويي نورمنديا في الألعاب الرياضية، تحت سماء غائمة وفي مهب الرياح الباردة، والرقص مع الصبايا على نغمات الرباب وفي ظل أشجار التفاح المزهرة. وكان يجلس مع الفوتية على صخور الشاطىء، ويقضي وقتاً طويلا وهو ينظر بمنظاره إلى الأفق البعيد، متمنياً أن يتجه يزورقه في صباح نير من أيام فصل الربيع، إلى ماوراء تلك الشواسع النائية عن الموانئ المجهولة

وأرادت أمه أن يترهب فأدخلته أحد الأديرة، إلا أن موبسان لم يكن راغباً في الترهب فصرف المدة التي قضاها في الدير ثائراً متمرداً، لا يخضع لنظام ولا يتقيد بقاعدة. وفي ذات يوم كسر غطاء أحد دنان الخمر وراح يكرع منها مع رفاقه التلامذة. وعندئذ عيل صبر رئيس الدير فأمر بطرده

* * *

ثم انصرف موبسان إلى درس الحقوق غير أن نشوب الحرب بين فرنسا وألمانيا عام ١٨٧٠ اضطره إلى هجر المدرسة ودخل في دائرة تموين الجيش. وبينما كان الجيش الفرنسي يتراجع أمام هجوم الألمان المنيف، كان موبسان يطالع كتب شوبنهور، وينظم الأشعار في الحب، ويعلل النفس بالانتقام من الغدر الذي اجتاح أرض بلاده، ودنس حرمة أمته. ومن برودة الانتقام وحرارة الحب تكون مزاج هذا الكاتب الفني

ولما انتهت الحرب بانتصار ألمانيا، قصد موبسان باريس، على أمل أن يجد عملا يساعده على متابعة دروسه، فدخل موظفاً في إحدى الدوائر البحرية. ولم يكن بين رؤسائه ورفاقه من يعتقد بأن ذلك الأسد الثائر يتحول إلى حمل وديع

أما باريس وشعبها وأنديتها وكبار شخصياتها فكانوا لا يعرفون عن هذا الفتى شيئاً. وعبثاً كان يقصد ليلا إلى البوليفار، ويأخذ في التطلع إلى أوجه المارة، على نور مصابيح الناز الضئيل لعله يكتشف بينهم روحاً شقيقة لروحه، فيأنس إليها ويبثها ما في قلبه من حنين وشجن. وأخيراً وجد نهر السين ضالته المنشودة فأحبه وأنس به وركن إليه، لاعتقاده أنه الصديق الذي لا يخون، والرفيق الذي لا يراوغ

فكان يقضي أيام الآحاد بكاملها ماخراً بزورقه في مياه نهر السين، محاولا تبديد ما يستعر في نفسه من ميول وأهواء. وكانت برودة رياح ذلك النهر الذي هو أشبه بقطعة من البحر، تنسيه غبار المصلحة التي يشتغل فيها، ورائحة القاهي التي يرتادها، وضجات الغوانى اللواتى يجتمع بهن. وجملة القول أنه اتخذ من ذلك النهر عشيقه ورفيقه ومحييه ومهدهد أحلامه. ومن قوله في انصرافه إلى تلك الحياة البوهيمية: «لا عمل لي سوى التجديف والاستحمام، وقد اعتادت الجرذان والضفادع رؤية نور مصباح زورقي الضئيل كل ساعات الليل، وعندما أقبل عليها ترفع أصواتها لاستقبالي. أما أصدقائي المجدفون فكانوا يدهشون عندما أطل عليهم في منتصف الليل، وأشاركهم في احتساء كأس من الشراب»

* * *

ثم تعرف موبسان إلى الكاتب المشهور جوستاف فلوبير، وكان هذا الأديب العبقري قد حوكم وتوطع بسبب روايته «مدام بوفاري»، وبات منزلا في بيته كمركب فرضت عليه المراقبة الصحية، لا أحد يجسر على الدنو منه. غير أن هذا الكاتب الكبير لم يحزن لما أصابه أو يهتم، لأنه أصبح وقتئذ لا

لايرسم من صور الحياة إلا بقايا ما فى شخصيته التعبة من رؤى وأشباح . لقد كان كذلك مخلوع ، قبع فى هيكل للفن لا أحد يعرف مدخله سواه

وكان فلوبير فى ذلك العهد يفتش عن تلميذ نبيه ، وموبسان يفتش عن أستاذ خبير يمكنه الاتكال عليه . فتفاهما وتصادقا ومزجا روحيهما فى روح واحدة . وظل موبسان خلال سبعة أعوام يرتاد بيت أستاذه فى أيام الآحاد ، حاملا إليه ما يكون قد حبره فى أيام الأسبوع لكى يصلحه له . وكان الأستاذ يقلب نظره فى تلك الأوراق المكتوبة ، وهو يشطب بقلمه الرصاصى الأزرق ما يراه شاذا أو خطأ . ولم يطل أن اكتشف التلميذ سر فن الأستاذ ، وراح ينشب سهام سخريته السامة فى أكاذيب الحياة ورياء المجتمع

وفى خلال السنوات السبع التى قضاها موبسان صديقاً لفلوبير ، أرشده هذا إلى طريقة تضمن له الفوز فى حياته الأدبية؛ وهذه الطريقة هى أن يلاحظ ، أولا وثانياً وثالثاً ، كل ما يحيط به ويقع تحت نظره ، من مشاهد الحياة وحوادث المجتمع . ولما توفى فلوبير قصد موبسان إلى بيت صديقه وأستاذه المتوفى ، وعملا بوصيته له أخذ يلاحظ ، أولا وثانياً وثالثاً ، غسل الجثمان وإعداده للدفن ، وحمله إلى المقبرة ، وانزال التابوت إلى الحفرة

كان موبسان يقاسى صداعا لا يحتمل ، ولكى يخفف من هذا الألم كان يلقى بنفسه فى مياه نهر السين الباردة . ثم كان يقترب من الشاطىء ليسمع الذين تجمعوا هناك للتفرج عليه كل كلام بذىء . وكان يروى لرفاقه الموظفين قصصاً يحمر لها وجه الفضيلة خجلا ، ويلقى فى مسامع السيدات والأوانس اللواتى يجتمع بهن فى الحفلات والمراقص كل قول ملتبس . وكانوا يتحدثون عنه ويقولون إنه أوقع رجل عرفته باريس . نعم لقد كان أوقع رجل عرفته باريس ، ولكنه كان فى الوقت نفسه من أكثر رجال تلك المدينة ذكاء وعبقرية . ولربما كانت هذه العبقرية نفسها سبب ما كان يعانيه فى حياته المضطربة من ألم وضيق . وكان الباريسيون يتحاشونه ، ويتخلفون عن مشاهدة ما كان يمثله من الروايات المشبوهة فى مختبر لرسام عرف بتعشقه هذا النوع من التمثيل ، ورجال الأمن يعنفونه بشدة كلما اطلعوا له على قصيدة مجونية منشورة فى مجلة تعنى بمثل هذه المواضيع

وكان كلما اشتد صداعه ، ولا سيما فى أيام الشتاء الباردة ، يقف أمام المرآة ساعات كاملة ، محدقا إلى عينيه كأنه يريد أن يكتشف فيهما أسباب ذلك الألم . وقد كتب مرة إلى أمه قائلا: « إن شهر ديسمبر يخيفنى ويبعث فى قلبى اليأس . إنه شهر قاتم ومشؤوم ولا سيما فى منتصف ليلة آخر السنة . وعندما أجلس وحيداً إلى منضدتى ، ومصباحى أمامى يلقى على نوره الكئيب أشعر بانحطاط قواى إلى درجة لا أعرف معها إلى أن أتجه » ولكنه كان يتجه دائماً إلى رواياته وقصصه ، ملتقطاً مواضيعها من أفواه الصيادين والقرويين والممثلات والغوانى والموظفين وغيرهم

واجتمع مرة بفئة من رجال الفكر والقلم فى منزل إميل زولا وكانوا يتباحثون فى مبادىء المذهب الأدبى الجديد الذى يريدون اعتناقه والتبشير به . وفى أثناء ذلك اقترح أحدهم وضع كتاب عن الحرب التى نشبت بين فرنسا وألمانيا ، ولكن ليس كالذى اعتاد المؤرخون والسياسيون وضعه عن الحروب ، بل كالذى يضعه الأبالسة فى الجحيم ، وينفذه البشر على الأرض ، أى أن يكون خاليا من الأوهام والزاعم ، لا غرض منه سوى إظهار البطولة الحقيقية . وكان من نتائج هذا الاقتراح صدور رواية لموبسان بعنوان « كرة الشحم » وقد جاءت كما أرادها صاحب الاقتراح

لقد أظهر موبسان فى هذه الرواية احتقاره وبغضه لبلادة الرجل . ولكن هذا البغض يتحول إلى شفقة فى الروايات الأخرى ، ولا سيما فى روايته « الحلية » التى هى فى نظر أئمة النقد من روائع الفن القصصى الفرنسى (١)

كان موبسان يكثر من تنشق الأثير لكى ينسى آلامه المبرحة بما تحدثه أبخرته فى رأسه من الأحلام . وكان ينفق ما يقتصده لقضاء أيام عطلة الصيف خارج باريس على شراء المسكنات . وقد كان فى لجوئه إلى هذه الواسطة للتخلص من أوجاعه الدائمة صورة جلية للجبال الوثنى . ومن قوله : « أحب الفضاء كالعصفور ، والغاب كالذئب ، والصخور كالغزال ، والروج كالجواد ، وأحب المياه الصافية التى تطيب لنا فيها السباحة

(١) ترجمها الأستاذ الزيات فى كتابه (من الأدب الفرنسى)

كالسمك ، وأحب العالم كما تحبه هذه كلها ، لا كما تحبونه أنتم أيها البشر . أحبه دون إعجاب ، وأنشده وأتغنى به دون شعوذة . إني أحبه حبا عميقا وحيوانيا ، حبا دنيويا ومقدسا في وقت معا »

وكان يظهر قلة شفقته على البشر مع أن رواياته تكذبه . ومن قوله : « أريد أن أفتح رأس أحد الشعراء لكي أرى ما فيه »

ولكنه كان يبكي لآلام الحيوانات الحمراء ويشفق . فصياح الذئب الجريح يدمي قلبه ، ومشهد جثة البغل مطروحة على بضع خطوات من المرج ، الذي كثيرا ما تمنى أن يرعى فيه ويسرح ، يذيب حشاشته ، ونباح الكلب الجائع يسيل عبراته . وله في شقاء الكلب قصة جد مؤثرة

ومن قوله عن مملكة الإنسان ، أو الحيوان الأصغر ، أن القدر يتسلط على الإنسانية بوحشية مماثلة لوحشية الإنسانية في تسلطها على البغال والكلاب

وقد نفخ في نفوس قرويي نورمنديا روح الحياة ، وكان يتصل بهذه النفوس البسيطة لا عن طريق الروح ، بل بالشعور والفطرة والشم ، وقد كانت هذه الحاسة الأخيرة قوية فيه كما هي في بعض الحيوانات البرية . فكان يقف بواسطتها على تأثراتهم وغرائزهم وأفكارهم ونوع معيشتهم . حتى إن الحياة التي تختلج في صفحات كتبه كانت عابقة بمختلف الروائح ولا سيما المنتنة منها . لأن موبسان لم يكن ينظر إلى الحياة إلا من ناحيتها المنتنة ، فيقبض على هذه الناحية بكلتا يديه ، ويأخذ في دعكها وعصرها إلى أن يمسخها أو يدميها

وكان يستخدم في إعداد قصصه ، حتى الشنيع منها ، أسلوبا خاصا ، لأنه لم يكن يرى فيما يريد أن يكتبه سواء أكان عن الأمراء أم عن القرويين ، شيئا من التفكهة أو الزهو ، ومع ذلك فقد ارتفع في وصفه الألم والبلادة والسخافة إلى أعلى ذرى الفن . وكانت قصصه شبيهة بأمثال لافونتين وروايات بوكاسيو الرائعة

ومن خصائص فنه القصصي تجريد أشخاص رواياته من النفس ومن أية تعزية دينية . ومع ذلك فتشاؤمه وضآلة علمه وأسلوبه المدرسي البسيط ، كل ذلك يدل بأجلى بيان على أنه خير ممثل لجيله الجديد

لم يتقيد موبسان في حياته بأي مذهب من المذاهب الفلسفية المعروفة . ومن قوله في هذا الصدد : « في العالم من الحقائق بقدر ما فيه من البشر فلكل منا فكرة خيالية للعالم . من هذه الفكر ما هو عاطفي ، ومنها ما هو فرح وكئيب ودنس ، أي حسب طبيعة كل واحد . ففكرة الجمال هي اصطلاح إنساني بسيط ، وفكرة القبح رأي بسيط قابل للتغيير ، وكذلك فكرة الحقارة التي يتمشقها الكثيرون ، وأعاظم الفنانين هم الذين يستطيعون إرغام الإنسانية على اعتناق أفكارهم الخاصة »

* * *

كان موبسان كثير التخوف من الموت . ومن قوله فيه : « أنا لا أعتقد باضمحلال كل كائن يموت »

وكان يخاف من الجنون . وقد قال مرة لمدعويه : « يهمني كثيرا أمر الجنون ، وسأكتب قصة عن رجل جن تدريجيا » . ولشدة خوفه من هذا المرض كان يقضي لياليه عند عشيقاته كي لا ينام في غرفته وحيدا . وليس ما نطالعه في رواياته وقصصه من مواقف شاذة وأشباح مرعبة ، سوى صورة جلية لما كان يقاسيه في سويعاته السرية من خوف وارتعاب

وعكف على درس كتب الطب . وكان كلما اجتمع بطبيب يرهقه بالأسئلة عن أعراض بعض الأمراض حتى تبادر إلى أذهان الكثيرين من الأطباء أن موبسان يجمع معلوماته عن الطب لكي يضع رواية يحمل فيها عليهم وعلى علومهم

وتسلط عليه أخيرا مرض رؤية نفسه . فكان يرى ذاته أحيانا كما لو كان ينظر في المرآة ودخل غرفته مرة فأبصر طيفه جالسا على كرسي يطالع كتابا كان قد تركه منذ دقائق قليلة . وألف قصة عن رجل كان طيفه يتعقبه بصورة دائمة . وفيما هو يكتب ذات يوم ، جاء طيفه وجلس أمامه بالذات ، وأخذ يملي عليه ما كان يكتبه . فارتاع من شدة الخوف وصاح رافعا يده يريد طرد تلك الرؤية الغريبة

وكان في أيام الشتاء يجلس إلى الموقد وهو يرتعش من شدة البرد . حتى إنه في أيام الحر كان يحتفظ بنار موقده مستعرة . وكان يفكر في الذباب الذي يعيش بضع ساعات ، وفي الحيوانات التي تعيش بضعة أيام ، وفي البشر الذين يعيشون بضع سنوات ،